الحـــلاج

شهيد التصوف الإسلامى

تأليف الأستاذ طه عبد الباقى سرور

عرضه ونقد الأستاذ سعيد حمزة مكرم المحامى

الحسين بن منصور الحلاج ، شخصية صوفية خطيرة ! . اختصم فى شأنها الناس منذ ألف عام تقريباً حين ظهرت على مسرح الحياة العامة فى العالم الإسلامى، ولا يزالون حتى اليوم من أمرها على اختلاف ! !

وإذا كان الناس لايختلفون إلا حول المعالقة حين يخرجون عليهم بغير ما يألفون فى العقيدة أو فى الرأى أو فى السلوك ، كان من الطبيعى أن يختلفوا أمام الحـــلاج وهو فى الطليعة المقتحمة بآرائها ومبادئها الجديدة والحرئية معاً ، فى تاريخ الفـكر الإسلامى ! ! .

ولقد عانى الحلاج فى سبيل عقيدته ومنهجه أقسى ما يمكن أن يمتحن به صاحب رأى أو عقيدة ؛ فطورد وسجن وعذب ، ثم مثل به حيا ، وأحرق جثمانه لتذروه رياح بغداد أو ليبتلعه يم دجلة ! !

ومن عجب أن تـكون هذه النهاية الناجعة — فى ميزان الحلاج — انتصاراً يطمئن إليه بل ويقبل عليه إقبال المشوق المتلهف ! !

ويؤكد التاريخ بعد ذلك أن الحلاج كان صادق اليقين بن الطغيان أضعف من أن يحجب الفـكرة المضيئة ، كما أن البهتان أعجز من أن يزلزل الإيمان الوطيد ! . فقد ذهب الخليفة العباسى وشركاؤه فى الجريمة ، وقد باءوا بغضب المؤمنين والتاريخ، وبقى الحلاج حياً فى قلوب المؤمنين ، وشامخاً فى ضمير التاريخ ! ! .

وإذا كان الحلاج قد امتحن فى حياته بكل هـذا الرهق والقسوة والجريمة ،

فقد امتحن تاريخه أيضاً بكل أولئك ، فولت أخبارة هاربة فى زوايا بعيدة من مصادر متفرقة ، وكأنما تتوارى مما يلاحقها من عنت ، وبتعقبها من تضليل ! ! وما تزال محنة الحلاج تلقى بظلالها الرهيبة على كل من يحاول دراسة هذه الشخصية الخطيرة فى تاريخ الفكر والتصوف ؛ فلا يكاد يلم بها حتى يمضى عنها مسرعاً يترقب ! ! .

وما أعرف أحداً من الكتاب المحدثين قد اقتحم هذه المنطقة (المحرمة) ! . فى تاريخ التصوف الإسلامى ، بمثل هذه الجرأة ، وبمثل هذه القوة ، اللتين تناول بهما الأستاذ طه عبد الباقى سرور حياة الحلاج ومبادئه ونظرياته ، ليقدم لأول مرة لقراء العربية هذه الدراسة المتخصصة المنصفة ! .

وطه عبد الباقى سرور لا يخاطر برأيه وقلمه . حين يقتحم هذا الميدان ، وإنما يتقدم إلى هدفه الكبير وبين يديه رصيد عريض من الدراسات الصوفيه المتعمقة المحلقة ، يؤكد قدرته على حمل هذه الأمانة الكبيرة ؛ أمانة التأريخ للحلاج بين هذه الغيوم والشكوك والعواصف التى تكاد تحجب وجه الحق فى تاريخه ! !.

وقد صحب طه عبد الباقى سرور — الحسين بن منصور الحلاج ، فى رحلة حياته ، منذ مولده إلى مصرعه ، صحبة ذكية واعية ! . ويالها من حياة تلك التى عاشها الحلاج حياشة نامية ؛ إنبعثت فيها أحداث هزت الضمير الإنسانى ، ولا تزال تهزه إلى اليوم ، ونبتت فيها مبادىء ونظريات تدفقت علماً وإشراقاً ومعرفة ! . واصطرعت من حولها ومن أجلها آراء ومذاهب وأهواء لا تزال حتى اليوم تموج بها آفاق الباحثين والمفكرين وتوجه إلى مدى بعيد حياة أقوام فى أنحاء واسعة من عالمنا الإسلامى المعاصر ! !

وفى أتون هذه الأحداث التى تزحم هذه الحياة العريضة زاح قلم الأستاذ طه عبد الباقى سرور يؤلف بين خيوطها المتشابكة المتباينة ، لتستقيم بين يديه نظريات واضحة الأصول والمناهج ، ومضى ينفث من فنه المترقرق فى هذه الأمشاج من تاريخ الحلاج حرارة وحياة حتى لكأننا نضطرب فى شوارع بغداد مع أهلها فى زمانهم السحيق ! . تخفق قلوبنا لخطو هذا القطب الكبير ، وترهق أعصابنا أحداث محنته ! !

لم يكن الحلاج صورة مكررة من أقطاب الصوفية الذين لا بعينهم — بصفة عامة — ما يحيط بهم من حياة وأحياء ! فقلوبهم أبداً تهفو بها أجنحة الشوق إلى حياة خير

وأبقى من هذه الحياة ، وأبصارهم دائماً تجاوز دنيا الناس فى غير اكتراث ، وهى تنشد فى تصعيدها وجه الله ! بل لقد كان الحلاج يمارس الحياة فى عمق وتسام وتفتح! ويؤرقه مايأخذ بحياة الناس من حاجة وظلم وقسوة !! ولم ينسه تقلب وجهه فى السماء أن يتأمل الحياة فى أعماقه وفيمن حوله على الأرض ! ! ثم ما لبث أن هدته مجاهداته وتأملاته إلى أن الإنسان يحمل مسئوليته كاملة ! وأن عليه وحده أن يرفع عن كاهلة هذه الأثقال المضنية ، وإلا تعثرت عباداته فى طريقها إلى الله !! ومن هنا بدأت دعوته إلى إقامة حكومة الأقطاب ! !

يقول ماسنيون : (لقد طالب الحلاج بإصلاح الإدارة الحكومية فى جرأة غير مسبوقة ، ونادى بإقامة حكومة إسلامية حقاً ، ووزارة كما يقول تحكم بالحق والعدل بين الناس ، وهاجم عمال الخراج ، وطالب كما يقول بخلافة تشعر بمسئوليتها أمام الله جل جلاله ؛ مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم من صلاة وحج وصيام) !!

ويقول الأستاذ طه عبد الباقى سرور (وبذلك سبق الحلاج بمنهجه الذى يمكن أن نسميه بالإشتراكية الديمقراطية الدينية كافة الدعاة العالميين إلى هذا اللون المنهجى فى الإصلاح الإجتماعى) .

وهكذا لم تكن هذه النظرية السياسية مجرد بحث علمى حبيس بين وفتى كتاب بقدر ما كانت انطلاقة إيجابية واثبة !! انتفض بها ضمير بغداد ، وخفق لها قلب العالم الإسلامى كله ! !

يقول المستشرق ماسينون (وأدار الحلاج دعوته من وراء الحجب ، وفى سنة ١٩٦ هـ سنة ٩٠٨ م انفجرت المؤامرة الحلاجية ، وقامت خلافة تحت رعاية الحلاج ، تولاها ابن المعتز لكنها استمرت يوماً واحداً ، ثم فشلت لأنها لم تستطع الحصول على الأموال من الممولين اليهود ، وقد كانوا متواطئين مع عمال الخراج الشيعة) !!

ثم يمضى الصراع العنيف خفياً تارة ، وسافرا أخرى ، بين قصر الخلافة العباسية وبين الحلاج حتى ينتهى بإثارة فتنة شعبية كما يقول ماسنيون يؤجج نارها الوزير ابن عيسى صديق الزعيم الصوفى الثائر ، ثم تكون مؤامرة ينسج خيوطها الخبيثة الوزير حامد

لحساب سيده الخليفة المعتضد ، وحين يؤتى بالحلاج متهماً بادعاء الألوهية ! . وإحياء الموتى ! وتسخير الجن وإتيان المعجزات والخوارق ! ! يقول فى يقين المؤمن وقوته : (أنا عبد الله ، أؤمن به ، وبرسله . وأدعوا إلى الحق . وأنشد الخير للمسلمين ولا أقر الظلم ، ولا أعرف هؤلاء الشهود ، وأعوذ بالله من الدعوى) وتحت هذه الكلمات الصواعق يتهافت الإتهام ويتهاوى ! !

ويختفى المتآمرون حينا ليخرجوا فى نهاية عام ٣٠٨هـ بوثيقة اتهام جديدة تزعم :—

١ — تراسله سراً مع القرامطة .

٢ — إعتقاد أتباعه بألوهيته .

٣ — قوله أنا الحق ! !

وتستمر هذه المحاكمة الثانية العجيبة شهوراً (والحلاج — كما يقول الأستاذ طه عبد الباقى تتساقط على أقدامه إتهامات المبغضين ، ويذوب أمام بيانه وإيمانه جدل المجادلين) ! ! ورغم براءته المضيئة من كل ما نسب إليه يصدر الحكم بإهدار دمه !! وحين يدفع به إلى المصلبة ويرى الخشبة والمسامير !! يضحك حتى تدمع عيناه ! ! — كما يروى إبراهيم بن فاتك — ثم يستقبل القبلة فيصلى ركعتين يمضى بعدهما فى مناجاة، صاعدة ، تترقرق رضاء وإطمئناناً ونوراً ! ! : (إن هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لصلبى تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك ، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، فلك الحمد فيما تفعل ، ولك الحمد فيما تريد) ! !

ويمضى الأستاذ طه عبد الباقى سرور فى رسم ملامح هذه الشخصية المتفوقة بريشته النافذة إلى الأعماق ، المتدفقة بالحياة ، فيتحدث عن الحلاج الصوفى بعد أن فرغ من حديث الحلاج السياسى ؛ تحدث عن مفوثاته ، ونظريته فى الحب الإلهى ، ونظريته فى الحقيقة المحمدية . ثم دافع عنه دفاعاً حاراً مما اتهم به من وحدة أو اتحاد أو حلول !! وإنها لفصول قيمة أرجو أن يتاح لى عرضها وتحليلها فى أعداد قادمة .

ويبدو أن ما نعرفه عن الأستاذ طه عبد الباقى سرور من روح علمى رصين فى

دراساته الصوفية ، قد زحمته قليلا هذه المرة عاطفة حانية على الحلاج أنسته قليلا أن يحتاط فى تقبل بعض الروايات التاريخية ، وخاصة ما أحاط بواقعة مصرعه من صور أسطورية ! ! ولست أدرى لماذا لم أستسغ منطقاً يوزع مصرع الحلاج على ثلاثة أيام تقطع فيها أوصاله على دفعات ! ! وما أظن أن إنسانا تنزف دماؤه ثلاثة أيام كاملة دون أن يسلم روحة ، ولو كان عملاقاً كالحلاج ! !

وقد كنت أود أن يكون الأستاذ طه أكثر حسما أمام علامات التساؤل المنتصبة أمام ما ينسبه أشياع الحلاج إليه من كرامات وخوارق من بينها إحياء الموتى !! وحديثه ساعة أو بعض ساعة بعد أن انفصلت رأسه عن جسده ! ! فالحلاج فيما أحسب ليس فى حاجة إلى كل هذه الأصباغ الصارخة ، ليبدو على حقيقته الوضاءة المشرقة ! !

وبعد فقد حقق الأستاذ طه عبد الباقى سرور بهذه الدراسة القيمة عن الحلاج أملا كبيراً ، طال بالمكتبة العربية الحديثة ترقبه ! .

وإنه لمن حسن حظ الدراسات الصوفية — بحق — فى عصرنا المادى أن يتناولها قلم (فنان) كقلم طه عبد الباقى سرور ؛ فيحررها من قوالبها التقليدية (المجمدة) ! . كما يقول الإقتصاديون ، لتنطلق — كهذه الدراسة عن الحلاج — مجنحة الصور ، رفاقة المعانى ، متوثبة التصعيد إلى فجر صادق جديد ؟ .